مجلة "منبر التراث الأثري"
ISSN: 2335-1500, EISSN: 2602-7267

المجلد: 12؛ العدد: 01؛ 2023
ص 43 – 62

كتاتيب ومساجد بجاية في العصر الوسيط – تاريخها ودورها العلمي

Writers (katatib) and mosques of Bejaia in the medieval era - its history and scientific role.

د. خالد حموم، قسم التاريخ والآثار، جامعة محمَّد لمين دباغين سطيف 2 (الجزائر)
k.hammoum@univ-setif2.dz

تاريخ الاستلام: 2023/02/23 تاريخ القبول: 2023/04/27 تاريخ النشر: 2023/04/30

ملخص:

أكثر شيء اشتهرت به مدينة بجاية في العصر الوسيط هو الازدهار العلمي المنقطع النظير، وتجلى ذلك على وجه الخصوص في انتشار التعليم على نطاق واسع جدًا، والمؤكد أنَّ انتشاره يرجع بالأساس إلى إنشاء صروح عمرانية مختلفة أهمها الكتاتيب والمساجد.

أحاول من خلال هذا البحث التعريف بكتاتيب ومساجد بجاية في العصر الوسيط، بذكر تاريخ بنائها، ومن شيَّدها، وإحصاء أعدادها، دون أن أنسى أهم شيء يتعلق بها ألَّا وهو دورها العلمي في مدينة بجاية وكافة بلاد المغرب الإسلامي.

كلمات مفتاحية: الكتاتيب؛ المساجد؛ الحياة العلمية؛ بجاية؛ المغرب الأوسط.

Abstract:

The most famous thing for the city of Bejaia in the medieval era is the unparalleled scientific prosperity, and this was evident in particular in the spread of education on a very large scale, and it is certain that its spread is mainly due to the construction of various buildings, the most important of which are writers and mosques.

Through this research, I try to introduce the writers (katatib) and mosques of Bejaia in the medieval era, by mentioning the history of its construction, who built it, and counting its numbers, without forgetting the most important thing related to it, which is its scientific role in the city of Bejaia and all the countries of the Islamic Maghreb.

Keywords: Madrassa; Mosques; Scientific life ; Bejaia; The Middle Maghreb.

مقدمة:

أدرك البجائيون في العصر الوسيط سواءً حكام أو محكومين الأهمية القصوى للكتاتيب والمساجد في ازدهار الحياة العلمية، فلم يجعلوها مكانًا للعبادة بإقامة الصلاة وتلاوة القرآن، بل تعدى ذلك إلى دراسة مختلف العلوم النقلية والعقلية خاصةً في الزوايا والمساجد الجامعة.

أمَّا المنهجيَّة التي تناولت بها الموضوع فتمثلت في المنهج السردي، حيث قمت بسرد مختلف الحقائق التاريخيَّة كما وردت في مناهلها الأصلية، كما استخدمت المنهج التَّحليلي والنقدي لإظهار ما أمكن إظهاره من الحقائق والجوانب الخفية.

ومن هذا المنطلق أطرح الإشكالية التالية: ما مدى مساهمة كتاتيب ومساجد بجاية في العصر الوسيط في إثراء الحياة العلمية ؟

للإجابة على هذه الإشكالية طرحت العديد من التساؤلات: متى بنيت كتاتيب ومساجد بجاية ؟ من قام ببنائها ؟ كيف كان طرازها المعماري ؟ ما هي العلوم التي دُرست بهذه الكتاتيب والمساجد ؟

1.. الكتاتيب:

1.1..لغةً:

كَتَبَ، الشَّيْءَ يَكْتُبُهُ كَتْبًا وكِتابًا وكِتابةً، وكَتَّبَهُ: خَطَّهُ[1]. وقد أشتق الكُتَّابُ من الفعل كَتَبَ. والكُتَّابُ: بضم الكاف وتشديد التاء، موضع تعليم الكُتَّابِ، والجمع الكَتَاتِيبُ. المَكْتَبُ: موضع التَّعليمُ، والمُكْتِبُ: المُعَلِّمُ، والكُتَّابُ: الصِّبيانُ، ويقال لصِبيانِ المَكْتَبِ الفُرقانُ أيضًا[2].

[1] ابن منظور، لِسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، مج 5، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص 3816 .
[2] الفيروز ابادي، القاموس المحيط، ج1 ، ط 3، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، مصر، 1983م، ص 120.
[3] ابن منظور، المصدر السَّابق، مج 5، ص3817.

2.1.. اصطلاحا:

الكتاتيب عبارة عن مكان مستقل يتسع لمجموعة من الصبيان، قد يكون غرفة في منزل، أو بجوار زاوية أو حنوت يكترى، أو حجرة ملحقة بالمسجد لا داخله خوفًا من النَّجاسة[1]، لأنَّ جل العلماء أفتوا بعدم جواز تعليم الصِّبيان في المساجد المخصصة للصلاة، ويقول في هذا الشأن الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى: لا أرى ذلك يجوز، لأنهم لا يتنظفون من النَّجاسة[2].

وكانت الكتاتيب عبارة عن بناء بسيط واسع مفروش بحصير أو مشابهها، يجلس عليها الصبيان متربعين حول المعلم الذي يختص بسرير أو كرسي مرتفع، وقد يشترك أكثر من معلم واحد في كُتاب واحد، إذا كان عدد الأطفال كثير[3].

وفي المولد النبوي الشريف كانت تتزين الكتاتيب بإيقاد الشموع، كما يتزين الأولاد وينشدون أناشيد دينية في محاسن سيد العباد النبي محمَّد صلى الله عليه[4].

والكُتاب مؤسسة تعليمية ظهرت قبل الإسلام لتعليم الأطفال القراءة والكتابة، وبعد الإسلام زيد عليها تحفيظ القرآن الكريم، وتعليمهم الدين الإسلامي والخط والحساب ومبادئ اللغة العربية[5].

---

[1] صفية ديب، المؤسسات التعليمية في بجاية ودورها التعليمي في عصري الموحّدين والحفصيِّين من القرن (7، 10هـ/13، 16م)، مقال منشور بمجلة الباحث، مجلة دورية علمية محكمة تعني بالتعليميات والعلوم الإنسانية، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، المجلد 5، العدد 2، ديسمبر 2013م، ص4.

[2] محمَّد محمدي، المساجد والزوايا ببجاية ودورها في حفظ الدين والفكر الصوفي، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد 13، 2013م، ص109.

[3] صفية ديب، المرجع السَّابق، ص4.

[4] الرَّصاع، فهرست الرَّصاع، تحقيق وتعليق محمَّد العِنابي، المكتبة العتيقة، د.ت، ص23-24.

[5] صفية ديب، المرجع السَّابق، ص3.

ونظرًا لكثرة الإقبال على التحصيل العلمي انتشرت هذه الكتاتيب بحاضرة بجاية، ولم تشر المصادر الخاصة بفترة البحث إلى عددها، ولكن يبدو أنَّه كان لا يخلو حي إلَّا ووجد به كتاب[1].

ومن بين العلماء الكبار الذين تعلموا في كتاتيب بجاية، صاحب كتاب عُنوان الدِّراية، الغُبريني، إذ ذكر أنَّه حينما كان صبيًا وهو في المكتب (الكتاتيب) في بجاية، التقى بشيخه العابد الزاهد أبي الحسن علي بن محمَّد الزواوي اليتورغي، في بلدة بني يتُّورغ بموضع سكناه منها، وقال "أنَّه فرح بي وسرَّ واستدناني لنفسه، وأخذ يقرأ ويقول ويمسح على رأسي ويجذب بأذني إلى أن استوفى ما أراد أن يقرأ، وما شاء الله من ذلك، وكان ذلك منه غير سؤال سُئلَهُ وإنما فعله من تلقاء نفسه، فوجدت بركة ذلك وتعرفت يمنه"[2].

وتذكر الباحثة صفية ديب[3] أنَّ "التعليم كان منتشرًا في كتاتيب بجاية، وقد لعب دورًا كبيرًا في انتشار العلوم في المجتمع البجائي، وهو القاعدة الثانية بعد المنزل الذي ينطلق منه الصبي وتهيئته للانتقال إلى مرحلة أخرى من التعليم وهي المرحلة العليا الأكثر شمولية، واتساعًا وستكون في مؤسَّسات أخرى من بينها المسجد"[4].

ومهما يكن من الأمر فإن التعليم في الكُتَّاب لم يقتصر على تعليم الصبيان المواد والمعلومات المخصص دراستها في الكُتَّاب، بل كان له أهداف تربوية ودينية، حيث يتخرج الأطفال من الكتاتيب وقد حفظوا القرآن

---

[1] عائشة رحيم، المؤسسات التعليمية في مدينة بجاية خلال القرون 7-10 هجرية، مقال منشور في مجلة متون، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة مولاي الطاهر، سعيدة، المجلد 11، العدد 2، سبتمبر 2019م، ص56. (نقلًا عن: محمود عفيفي، الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب، دار الفكر العربي، القاهرة، 2002م، ص317).

[2] عُنوانُ الدِّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجاية، حقَّقه وعلَّق عليه عادل نويهض، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1979م، ط2، ص125.

[3] أشير إلى أنَّ مقال الباحثة صفية ديب المنشور في مجلة الباحث، والموسوم ب: المؤسسات التعليمية في بجاية ودورها التعليمي في عصري الموحّدين والحفصيِّين من القرن (7، 10هـ/13، 16م)، صفحاته في المجلة من 291 إلى 306، وحينما قمت بتحميل المقال من البوابة الجزائرية للمجلات العلمية في شكل PDF، تغير ترقيم الصفحات وأصبح من 1 إلى 14، واعتمدت في بحثي على الترقيم الأخير.

[4] المؤسَّسات التعليمية في بجاية، ص4.

كله أو جزءه، وأتقنوا الكتابة وألموا بمبادئ العربية والحساب لينتقلون إلى المرحلة الثانوية أو العالية بمؤسسات تعليمية جديدة وهي المساجد والجوامع الكبرى والزوايا التي أنشئت بحاضرة بجاية[1].

2.. المساجد:

1.2.. أنواع المساجد وعددها:

المساجد في مدينة بجاية على نوعين مساجد صغيرة ومساجد كبيرة جامعة، فالمساجد الصغيرة أو مساجد الأحياء غير تابعة للحكومة، ولا دخل لها في إدارتها، إذ يقوم بتسيير شؤونها أهل الأحياء التي توجد بها[2]، ومعظم هذه المساجد بناها ميسورو الحال وبعض الشخصيات البارزة، وهذا النوع من المساجد كان كثير الانتشار بأحياء بجاية في كل حي مسجد على الأقل[3].

أمَّا المساجد الكبيرة الجامعة فهي واسعة الأركان، تقام فيها الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة، وصلاة العيدين[4]، يقوم بإنشائها والإنفاق عليها السلاطين والأمراء والولاة كجزء من عملهم الوظيفي لخدمة المجتمع، ويقوم بأمرها القاضي الذي يفوضه الأمير أو الحاكم ليشرف على تسيير شؤونها، وقد اهتم أمراء بجاية بترميمها وإصلاحها، حيث حرصوا على تهيئتها لتؤدي رسالته الدينية والتعليمية، فاهتموا بإنارتها وفرشها بأزهى وأفخر الأفرشة[5]. وكانت هذه المساجد مراكز للحياة الدِّينية والسياسية والاجتماعية والثقافية، فقد اتسع المسجد ليستوعب دراسات شتى شملت علم الكلام والفقه والفلسفة والنحو والأدب والطب[6].

---

[1] عائشة رحيم، المرجع السَّابق، ص59.
[2] صفية ديب، المرجع السَّابق، ص4-5.
[3] محمَّد محمدي، المرجع السَّابق، ص112.
[4] صفية ديب، المرجع السَّابق، ص5.
[5] محمَّد محمدي، المرجع السَّابق، ص110.
[6] صفية ديب، المرجع السَّابق، ص5.

وفيما يخص عددها، فيذكر المؤرخ أبو القاسم سعد الله أنَّ مدينة بجاية في نهاية القرن التاسع الهجري تحتوي بالتقريب على ستين مسجدًا[1]، بينما يذكر يحي بوعزيز أنَّ عددها ازداد بعد شروع النَّاصر بن علناس بناء المدينة فوصل بعد ذلك إلى 72 مسجدًا[2]، وهناك من يقول حوالي 73 مسجدًا هدمت عشرة منها أثناء الاحتلال الاسباني للمدينة[3]، وقد بنيت هذه المساجد تباعًا خلال العصر الوسيط، ابتداءً من العهد الحمَّادي، ثمَّ العصر الموحِّدي، وصولًا للعهد الحفصي[4].

ففي العصر الحمَّادي يذكر ابن خلدون أنَّ المنصور بن النَّاصر بن علنَّاس نزل بجاية سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة (483هـ/1090م) فاتخذها معقلًا وصيَّرها دارا لملكه وجدَّد قصورها وشيَّد جامعها"[5]. وهذا الجامع

[1] ذكر المؤرخ أبو القاسم سعد الله عدد مساجد بجاية، في معرض حديثه على مساجد تلمسان، حيث قال أنَّ بعض الإحصاءات تثبت أنَّ عدد مساجد تلمسان في نهاية القرن التاسع الهجري كان حوالي ستين مسجدًا، ومن الممكن أن نقول إنَّ مدينة قسنطينة وبجاية تحتويان على عدد من المساجد قريب من ذلك. (انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ص45).

[2] يبدو أنَّ المؤرخ يحي بوعزيز، إحصائياته حول المساجد تخص فترة أواخر العصر الوسيط وبداية العهد العثماني. (انظر: الموجز في تاريخ الجزائر، الجزائر القديمة والوسيطة، ج1، ط2، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، 2007م، ص158).

[3] محمَّد محمدي، المرجع السَّابق، ص112.

[4] أشير إلى أنني أتحدث في هذا البحث عن مساجد مدينة بجاية بالتحديد، والقريبة منها فقط، وليس مساجدها الريفية، البعيدة عنها عنها والمترامية في القرى والبلدات التابعة لها.

[5] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون المُسمَّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، ج6، دار الفكر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 2000م، ص232.

الجامع الذي شيَّده المنصور هو الجامع الأعظم، وللأسف الشديد مكانه غير معروف بالتدقيق[1]، فقد اندثر كليًا بفعل الاحتلال الإسباني للمدينة[2].

ويصف العَبدري في رحلته، أحد مساجد بجاية ويحتمل أنَّه الجامع الأعظم، حيث قال "ولها جامع عجيب، منفرد في حُسنه غريب، من الجوامع المشهورة، الموصوفة المذكورة، وهو مُشرف على برِّها وبحرها، وموضوع بين سحرها ونحرها، فهو غاية في الفُرجة والأنس، ينشرح الصَّدر لرؤيته وترتاح النَّفس، وأهلها يواظبون على الصَّلاة فيه مواظبة رعاية، ولهم في القيام به تهمم وعناية، فهو بهم مأمول عامر، يتخلَّل أنسه مسلك الأرواح ويخامر[3].

ويوجد في بجاية أيضًا المسجد الكبير، ويذكر الباحث (Laurent Charles FÉRAUD) "أنَّ المنصور بن النَّاصر لما انتقل إلى بجاية زاد في علو أسوار المسجد الكبير"[4]، ويظهر من كلامه أنَّ هذا المسجد كان مبنيًا قبل انتقال المنصور، والأرجح أنَّ والده النَّاصر بن علنَّاس هو من قام ببنائه.

ويذكر هذا الباحث أيضًا في موضع آخر هذا المسجد، وسماه المسجد الكبير الملكي (La grande mosquée royale) وذكر أنَّه "يوجد قرب قصر اللؤلؤة، وهو معلم هام ومشهور، منارته ترتفع للأعلى بستين ذراعًا، وعرضها عشرين ذراعًا في القاعدة، باب المسجد كبير، محاط بألواح رخامية مغطاة بنقوش. فِناءه المدعوم بـ 32 عمودًا من الرخام، يبلغ طوله 220 ذراعًا وعرضه 150 ذراعًا، تم تزيين واجهته بـ 17

[1] تذكر الباحثة صفية ديب أنَّها سألت خلال زيارتها لبجاية المختصين العاملين بالمتحف الواقع ببرج موسى في قلب المدينة عن موقع الجامع الأعظم، فقيل لها أنَّ مكانه غير معروف بالتدقيق، وقد يكون تحت أنقاض المسجد الكبير. (انظر: المؤسسات التعليمية في بجاية، ص5، هامش29).

[2] صفية ديب، المرجع السَّابق، ص5.

[3] رحلة العَبدري، حققها وقدَّم لها علي إبراهيم كردي، قدَّم لها شاكر الفحَّام، ط2، دار سعد الدِّين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2005م، ص83.

[4] Histoire de Bougie, Préface Djamel AÏSSANI, Editions TALANTIKIT, Béjaïa, 2013, p68.

رواق، تعلوه قبة ضخمة، والمسجد كله في الداخل مبني بالرخام، وجدرانه الجانبية مغطاة بالخزف المصقول، ويحتوي المسجد حوالي 22 بابًا صغيرًا[1].

ومن المحتمل أنَّ المؤرخ (Laurent Charles FÉRAUD) يقصد بوصفه هذا، الجامع الأعظم وليس المسجد الكبير، فكلمة الأعظم والكبير حينما نترجمها للغة الفرنسية تحمل نفس المعنى والمدلول تقريبًا، فترجمتها هي La grande وبالتالي الاسم الكامل للمسجد باللغة الفرنسية في الحالتين هو" La grande mosquée".

وفي واقع الأمر لم أعثر على معلومات تخص المسجد الكبير في المصادر التَّاريخية والمراجع الحديثة، ماعدا المعلومة السالفة الذكر، وهناك احتمال كبير بأن يكون المسجد الكبير هو نفسه الجامع الأعظم حيث تغيرت تسميته فقط مع مرور الزمن، أو أنَّ أحدهما بني على أنقاض الآخر، لأنَّ هناك من قال أنَّ الجامع الأعظم موجود تحت أنقاض المسجد الكبير، أو أنَّهما بُني بجانب بعضهما البعض، فتحولا مع الوقت إلى مسجد واحد، والله أعلى وأعلم. فهناك لبس كبير جدًا في هذا الشأن، نترك للباحثين الفرصة للبحث والتقصي لأجل الفصل في الموضوع.

ومن مساجد بجاية المشهورة، المسجد الجامع في قصبة بجاية، ويُعرف بجامع القصبة، والذي يرجع بناءه للفترة الموحِّدية في القرن السَّادس الهجري، ونجد فيه معظم المواصفات المعمارية لمساجد كبريات الحواضر الإسلامية، وهي مساجد جامعة بها محاريب، وأعمدة، وعقود، وقباب[2]، ويقع هذا المسجد في وسط المدينة، وهو قريب من المرسى، والآن أصبح المسجد مكتبة عامة للقراء والباحثين بعد ترميمه من طرف وزارة الثقافة[3].

---

[1] Laurent Charles FÉRAUD, Op.cit, p70.

[2] عزوق عبد الكريم: المساجد الريفية بمنطقة بجاية، مجلة الدراسات الأثرية، آثار، مجلة علمية سنوية محكمة، تعني بنشر الدراسات والأبحاث في الآثار والتراث، يصدرها معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، المجلد 11، العدد 1، أكتوبر 2013م، ص108.

[3] صفية ديب، المرجع السَّابق، ص5.

ومن مساجد بجاية أيضًا، مسجد الريحانة[1]، وكان هذا المسجد قائمًا مع مطلع القرن السادس الهجري، لأن محمَّد بن تومرت مهدي الموحِّدين حينما دخل بجاية سنة 512هـ/1118م نزل به[2]، ويتضح لنا أنَّ هذا المسجد يقع وسط مدينة بجاية لأنَّ أميرها آنذاك عبد العزيز بن المنصور طلب من ابن تومرت مغادرة المدينة نظرًا لتعصبه الشديد، فانتقل منها إلى قرية ملالة[3] التي تبعد عن بجاية 07 كلم جنوبًا[4]. مسجد الإمام المهدي ابن تومرت[5]، وهذا المسجد أغلب الظن أنَّه هو نفسه الذي بناه أبناء الأمير عبد العزيز بن المنصور لابن تومرت في قرية ملالة وسمي باسمه[6].

وفي بجاية يوجد كذلك مسجد الفقيه أبي زكريا الزواوي بحومة اللؤلؤة[7]، والمسجد حسب الغبريني يقع خارج باب المرسى في بجاية[8]. ومسجد سيدي المرجاني بحومة اللؤلؤة، وينسب هذا المسجد إلى الشيخ الفقيه أبو زكرياء المرجاني الموصلي[9]. وجامع سيدي عبد الحق الإشبيلي، الذي شُيِّد في القرن السَّادس الهجري، وهو قائم حاليًا تؤدى فيه الصلاة[10]، ويُنسب هذا المسجد إلى الشيخ الفقيه عبد الحق الأزدي الإشبيلي، أحد

---

[1] البيذق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحِّدين، دار المنصور للطِّباعة والوراقة، الرِّباط، 1971م، ص13.

[2] المصدر نفسه، ص13 ؛ إسماعيل العربي، دولة بني حمَّاد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنيَّة للنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، د.ت، ص210.

[3] قرية بظاهر بجاية كانت تسمى باللغة الأمازيغيَّة (البربريَّة) تاملالت. (انظر: البيذق، المصدر السَّابق، ص13، هامش6).

[4] عزوق عبد الكريم، المرجع السَّابق، ص112. (يذكر ابن خلدون أنَّ قرية ملالة تبعد مسافة فرسخ من بجاية. انظر: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص302).

[5] الغبريني، المصدر السَّابق، ص149.

[6] البيذق، المصدر السَّابق، ص13 ؛ أمبروسيو هويثي ميراندا، التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة، ترجمة عبد الواحد أكمير، ط2، منشورات الزمن، المغرب، 2015م، ص45.

[7] الغبريني، المصدر السَّابق، ص27.

[8] عنوان الدِّراية، ص51.

[9] الغبريني، المصدر السَّابق، ص178.

[10] عزوق عبد الكريم، المرجع السَّابق، ص120.

علماء بجاية الذي تصدر للتدريس به، ومن الناحية المعمارية والأثرية فهو عبارة عن قاعة مربعة الشكل بها محراب ولا تحتوي مئذنة[1].

وفي بجاية يوجد أيضًا جامع الموحِّدين[2]، ويبدو أنَّ هذا الجامع بُني حينما كانت بجاية تابعة للموحِّدين فنسب إليهم. ومسجد النطاعين الذي كان قائمًا في القرن السادس الهجري[3]، ومسجد عين الجزيري[4].

هناك مساجد أخرى كثيرة في بجاية، في واقع الأمر لم أعثر على معلومات تاريخية حولها، نترك للباحثين فرصة إماطة اللثام عليها، وتقديمها للقارئ على طبق.

2.2.. وظائف المسجد:

أول وظيفة للمسجد بطبيعة الحال هي إقامة الصلاة، ثمَّ التدريس، ويليها إصدار الفتوى في خضم هذه الدروس.

يزاول أبناء مدينة بجاية في العصر الوسيط تعليمهم في مرحلته الأولى في المساجد الصغيرة، أو مساجد الأحياء[5]، ثمَّ ينتقلون إلى المساجد الكبرى، وقد كانت هذه المساجد، جامعة قائمة بذاتها كما هو الشأن في عصرنا الحالي[6].

وهناك الكثير من العلماء الذين درَّسوا في مساجد بجاية في العصر الوسيط، مختلف العلوم، نذكر منهم المهدي بن تومرت فقيه الموحِّدين وزعيمهم، فقد درَّس في مسجد الريحانة في مدينة بجاية، وحينما انتقل إلى

---

[1] محمَّد محمدي، المرجع السَّابق، ص112-113.
[2] صفية ديب، المرجع السَّابق، ص5.
[3] الغبريني، المصدر السَّابق، ص174.
[4] محمَّد محمدي، المرجع السَّابق، ص113.
[5] محمَّد محمدي، المرجع السَّابق، ص112.
[6] صفية ديب، المرجع السَّابق، ص5.

قرية ملالة القريبة جدًا من بجاية، درَّس أيضًا بها، في المسجد الذي نسب له وهو مسجد الإمام المهدي ابن تومرت، وذكر البيذق أنَّ الطلبة كانوا يقبلون إليه من كل مكان لأخذ العلم[1].

ودرَّس أيضًا في مساجد بجاية الشَّيخ الفقيه الجليل القاضي الخطيب عبد الحق بن عبد الرحمان الأزدي الأشبيلي خلال القرن السَّادس للهجرة، وقد ألَّف فيها التآليف وصنف الدواوين وولى الخطبة وصلاة الجماعة بجامعها الأعظم[2].

كما درَّس في مساجدها، الشيخ الفقيه العالم أبو زكرياء المرجاني الموصلي في مسجده المشهور في حومة اللؤلؤة والمعروف بمسجد سيدي المرجاني، ويذكر الغبريني أنَّه كان يجتمع إليه لسماع دروسه "الأفاضل والصلحاء والمتعبدون، وكانوا يسمعون منه غرائب، ويطلعون من أحواله على عجائب، وكل ذلك مقيَّد بالكتاب والسنَّة وسنة السلف الصالح"[3].

ومن بين العلماء الذين عاشوا في مدينة بجاية في العهد الحمَّادي ثمَّ الموحِّدي ودرَّسوا بمساجدها العالم المتصوِّف المشهور أبو مدين شعيب الأندلسي التِّلمساني، فقد استوطن بجاية مُدَّة خمسة عشر سنة اشتغل أثناءها بالتَّدريس وتلقين التَّربيَّة الروحيَّة الصوفيَّة المؤسَّسة على القرآن والسنة، وكانت حياته بها مليئة بالعطاء العلمي والروحي، وإلى مجلسه تُشَدُّ الرحال من كل مكان، ومن معينه العذب النَّقي العميق الأغوار ينهل طلبة العلم القادمون من مختلف الأمصار[4].

---

[1] البيذق، المصدر السَّابق، ص13 وما بعدها.
Mouloud GAID, Opcit, p73-75.

[2] الغُبريني، المصدر السَّابق، ص41.

[3] عنوان الدِّراية، ص178.

[4] بوعلام جوهري: القطب سيدي أبو مدين شعيب بين حاضرتي بجاية وتلمسان، مقال منشور ضمن كتاب العلاقات العلميَّة والحضاريَّة بين زواوة وتلمسان، دار الأمل للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، تيزي وزو، الجزائر، 2011م، ص109 وما بعدها ؛ فاهم سعيد: المرحلة البجائيَّة في تصوف القطب أبي مدين التِّلمساني، مقال منشور ضمن كتاب العلاقات العلميَّة والحضاريَّة بين زواوة وتلمسان، دار الأمل للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، تيزي وزو، الجزائر، 2011م، ص133 وما بعدها.

ويذكر الغُبريني أنَّ الشَّيخ الفقيه العابد الصالح الزاهد أبو زكرياء يحي بن أبي علي المشتهر بالزواوي، درَّس في مساجد بجاية، ونشر العلم وبثه بها، فدرَّس علوم الحديث والفقه، فانتفع الخلق على يديه، وظهرت عليهم بركته وفعلت فيهم سريرته الصالحة ونيته، وما من ناحية من النواحي إلَّا وله فيها مسجد ومَعلم، وكلها معروفة بالبركة[1].

ومن العلماء الذين درسوا في مساجد بجاية خلال القرن السابع للهجرة، ثم علَّموا بها فيما بعد، الشَّيخ الفقيه أبو يوسف يعقوب بن يوسف الزواوي المنجلاتي، فقد تعلم بها، ثمَّ رحل إلى حاضرة إفريقية ولقي بها المشايخ، ولما عاد إلى بجاية درَّس بها وظهر أمره واشتهر، وكان مجلسه من المجالس المعتبرة، وكانت له معرفة بالفقه وأصول الفقه، وكانت تقرأ عليه الكتب المذهبية، وكان يقوم عليها قيامًا حسنًا، وكان أحد المفتين المشاورين في وقته[2].

ومن العلماء البارزين الذين ألقوا الدروس في مساجد بجاية أيضًا العلامة ابن خلدون[3]، وقد درَّس بجامع القصبة، ويقول ابن خلدون في هذا الشأن أنَّ أميرها أبا عبد الله محمَّد الحفصي "قدَّمني للخطابة بجامع القصبة، وأنا مع ذلك، عاكفٌ بعد انصرافي من تدبير المُلك غُدْوَةً إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبة لا أنفكُّ عن ذلك"[4].

---

[1] عنوان الدِّراية، ص127-128.

[2] الغبريني، المصدر السَّابق، ص265.

[3] أهل بجاية في العصر الوسيط كانوا يبجلون العلم وأهله كثيرًا، ومن صور ذلك احتفاءهم الكبير بقدوم العلامة ابن خلدون إلى بجاية سنة 766هـ/1364م بطلب من أميرها أبي عبد الله محمَّد الحفصي، ويصف ابن خلدون ذلك بقوله "فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدومي، وأركب أهل دولته للقائي، وتهافت أهل البلد عليَّ من كل أَوْب يمسحون أعطافي، ويقبِّلون يديَّ، وكان يومًا مشهودًا". (انظر: التَّعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1979م، ص104).

[4] التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، ص104-105. (انظر أيضًا: ليلى حمود: ابن خلدون في بجاية، مقال منشور ضمن أشغال الملتقى الدولي حول "بجاية مدينة التَّاريخ والحضارة" المنعقد في 30 و31 أكتوبر 2012م، منشورات كلية العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، جامعة عبد الرَّحمان ميرة، بجاية، 2013م، ص109 وما بعدها).

وكما أسلفنا سابقًا فأنَّ دور المسجد لا يقتصر على الصلاة والعبادة والتَّدريس فحسب، بل هو أيضًا مكان لطلب الفتوى من المشايخ والعلماء، ويؤكد الغُبريني ذلك حيث يقول أنَّ الشَّيخ أبا محمَّد عبد الحق بن ربيع أخبره عن أبيه الفقيه أبي الزهر ربيع رحمه الله، بأنَّه ذهب لمسجد الفقيه أبي زكريا الزواوي بحومة اللؤلؤة في بجاية وطلب الفتوى من الشَّيخ أبي مدين شعيب التلمساني، فأفتاه[1].

وعلى العموم فمدينة بجاية في العصر الوسيط كانت منارة للعلم، وهناك الكثير من العلماء والفقهاء الذين درسوا في مساجدها، وأفتوا بها، فمنهم البجائيون، ومنهم الوافدون إليها سواء من مدن المغرب الإسلامي وحواضره الكبرى، أو من الأندلس، أو من بلاد المشرق الإسلامي. وكتب التراجم والسِير بالخصوص عُنوان الدِّراية للغُبريني، ذكرت سيرة هؤلاء العلماء وتصديهم للتدريس والخطابة والفتوى بمساجدها العامرة.

3.2.. المسجد موضع للكرامات:

كانت المساجد في مدينة بجاية موضع للكثير من الكرامات[2] والتي حدثت للعديد من أئمتها وعلمائها، منها التي حدثت في مسجد الإمام المهدي بن تومرت بقرية ملالة في بجاية، للإمام المهدي بن تومرت بحد ذاته، فيذكر البيذق أنَّه ذات يوم بينما كان الإمام قاعد إذ سمعناه يقول "الحمد لله الذي أنجز وعده ونصر عبده وأنفذ أمره"، وأقبل نحو المسجد (مسجد الإمام المهدي بن تومرت) وركع ركعتين ثمَّ قال "الحمد لله على كل حال، قد بلغ وقت النصر، وما النصر إلَّا من عند الله العزيز الحكيم، يصلكم غدا طالب، طوبى لمن عرفه وويل لمن أنكره". فلما سمع النَّاس كلامه تعجبوا من أمره. وفي الغد كان قدوم عبد المؤمن بن علي الكومي، والتقى مع الإمام المهدي فحدثت بينهما كرامات أخرى منها معرفة الإمام اسم والد عبد المؤمن وهو علي، ومعرفته أنه من قرية تاجرا قرب مدينة ندرومة بتلمسان. وقد زاد النَّاس تعجبًا من

[1] عنوان الدِّراية، ص27.

[2] رأيي الشخصي حول الكرامات، أعتقد أنَّ الكثير منها غير صحيح، ولا يقبله العقل السليم، وينافي أكثرها الشرع الحكيم، لهذا لا أصدِّقها، مع احترامي وتقديري الكبير للعلماء والفقهاء الذين نسبت لهم هذه الكرامات.

كرامات الإمام[1]. وقد أصبح عبد المؤمن من أكبر تلاميذه ومقربيه، ومعروف في التَّاريخ كيف كان لعبد المؤمن شأن كبير فيما بعد، حيث قام بتأسيس الدَّولة الموحِّديَّة بعد أن تمكن من الاستيلاء على ممتلكات الدول الثلاث الزيرية والحمَّادية والمرابطية، وجعل بلاد المغرب الإسلامي كلها تحت إمرته، والاستيلاء أيضًا على بلاد الأندلس[2].

وحدثت كرامة أخرى في مسجد الإمام المهدي بن تومرت، للشَّيخ الفقيه العالم الزاهد "أبي الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم الحرالي التجيبي"، وقد ذكر الغبريني هذه الكرامة على لسان الفقيه "أبو عبد الله محمَّد بن إبراهيم السلاوي" والذي قال "كنت ببجاية، فأصاب النَّاس جفاف عظيم، وقلَّت المياه، فبعثني الشَّيخ أبي الحسن علي إلى بعض ديار أصحابه، وسقيت برمة ماء، فأمرني أن أعطي منها للفقراء، فامتنعت كريمته وانتهرتني، فسمع كلامها، فقال لي قل لها يا كريمة، والله لأشربن من ماء المطر الساعة، وهو قائم بالمسجد، قال: فرمق السماء بصره، ودعا الله تعالى، ورفع يديه، وشرع المؤذن في الآذان، فانعقدت السُحب وتراكمت، ولم يختم المؤذن آذانه بقوله لا إله إلَّا الله حتَّى كان المطر كأفواه القِرب، وروى النَّاس وأغدقوا، فرأيته ينصب يده المباركة للمطر ويشرب ويغسل وجهه، ويقول مرحبًا بقريب عهد من ربه"[3].

ومن كرامات الشَّيخ "أبي الحسن علي" أيضًا في مساجد بجاية، ما وقع له في مسجد الفقيه أبي زكريا الزواوي، حينما قدم إليه، وأراد الجلوس بالمسجد والكلام فيه، فمنعه المؤذن، من ذلك وقال له هذا الموضع محترم، ولا يتكلم فيه إلَّا عن أمرٍ (يقصد هنا بأمرٍ من الفقيه أبي زكريا الزواوي) فقال له الشَّيخ "أبي الحسن علي" يأذن الفقيه في ذلك ويقع الكلام إن شاء الله. ثمَّ سار إلى قبر الفقيه أبي زكريا رحمه الله وصلَّى في

---

[1] أخبار المهدي بن تومرت، ص14 وما بعدها.

[2] ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين (تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحِّدين)، تحقيق عبد الهادي التازي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م، ص65 وما بعدها ؛ ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحِّدين، تحقيق محمَّد إبراهيم الكتاني، محمَّد بن تاويت، ج5، ط2، مطبعة النَّجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1985م، ص15 وما بعدها.

[3] عنوان الدِّراية، ص149.

مسجده ركعتين، وجلس عند قبره المبارك وتحدث، وقال من كان معه من أصحابه قد أذن له، ولما كان بالغد أتى الشَّيخ المسجد، فوقف المؤذن فسلَّم عليه، وقال له وصلك الإذن ؟ فقال له نعم يا سيدي، رأيت سيدي الفقيه أبي زكريا وقال لي يتكلم أخونا. فتكلم بذلك الشَّيخ "أبي الحسن علي" في مسجد الفقيه أبي زكريا الزواوي[1].

وفي مسجد النطاعين حدثت كرامة للفقيه العالم أبو الفضل قاسم بن محمَّد القرشي القرطبي، حيث روي عن أحد فقراء بجاية، وكان هذا الفقير من المتجردين، قال أصبحت يومًا وليس لنا قوت ولا شيء من الأشياء، ولقد ولدت المرأة طفلة، فانقبض باطني بانقباض وقتي، وتشوَّش عليَّ حالي واشتد قلقي، فخرجت هائمًا بنفسي إلى أن دخلت مسجد النطاعين، فجلست فيه، وإذا برجل قد دخل عليَّ في المسجد وأتى إلى القبلة فركع ركعتين خفيفتين وجلس متوجهًا، قال الفقير: قلت في نفسي، إنَّ هذا الرجل الداخل خفَّف في تحيته، ولو أطال قليلًا لكان أحسن، قال الفقير فرأيت الرجل المذكور قد التفت إليَّ وقال لي: أيُّهما عندك أحسن ؟ الذي يخفف في صلاته أو الذي تلد امرأته فيهرب عنها ويتركها دون شيء ؟ قال فاقشعر بدني وتوهمت ثم قلت: آه والله يا سيدي قد فعلت وكان ما ذكرت، فادع الله لي، قال: فمد يده وناولني صُرَّة فيها دراهم وقال لي: أنفق منها لا تعدها، قال الفقير المذكور: فقلت له بالله من أنت ؟ قال: أنا قاسم القرطبي، فعرفته من تلك الساعة، ثم خرج وخرجت إلى السوق فأنفقت منها أشياء غير واحدة والصُرَّة بحالها، ثم حملت ذلك إلى البيت، واتسع الحال إلى يوم من الأيام دخلت سوق الصوف، فرأيت خرقة أعجبتني، فاشتريتها بثلاثين درهمًا، وغلبتني نفسي إلى عدِّ الصُرَّة ففعلت، فلم ألبث إلَّا قليلًا وفرغت، فجئت لأزوره، فلما رآني تبسَّم وقال لي على البديهة: ألم أقل لك لا تعدها[2]؟

[1] نقل الغبريني هذه القصة على لسان الفقيه الشَّيخ "أبو محمَّد عبد الحق بن ربيع" رحمه الله. (انظر: عنوان الدِّراية، ص149-150.
[2] الغبريني، المصدر السَّابق، ص174- 175.

هذا غيض من فيض، فالكرامات في مساجد بجاية في العصر الوسيط كثيرة جدًا لا يسعنا المقام ذكرها جميعًا، وبالعودة للمصادر التَّاريخية نجد العديد منها.

3.. خاتمة:

في ختام بحثي هذا توصلت للعديد من النتائج أهمها:

– تعد الكتاتيب والمساجد من أهم المعالم العمرانية في بجاية خلال العصر الوسيط.

– حكام بجاية في العصر الوسيط أسهموا جميعًا في بناء الكتاتيب والمساجد، ابتداءً بالحمَّاديِّين، ثمَّ الموحِّدين وصولًا للحفصيِّين.

– المعلومات في المصادر التَّاريخية والمراجع الحديثة حول كتاتيب بجاية شحيحة جدًا، مقارنة بالمساجد التي وردت عنها المعلومات مستفيضة نوعًا ما.

– لم يكتف البجائيون بالصلاة والعبادة في المساجد، بل حولوها إلى مكان لطلب العلم، فقد اهتم أمراء بجاية بالتعليم في الكتاتيب والمساجد، وكذلك فعل أعيان المدينة ورعيتها.

– كتاتيب بجاية ومساجدها كان لها دورًا هامًا في إثراء الحياة العلمية، من خلال دراسة مختلف العلوم النقلية مثل التفسير، الفقه، أصول الفقه، الحديث وغيرها، ومختلف العلوم العقلية مثل الرياضيات، الفلسفة، الطب، التاريخ، الجغرافيا، الفلك وغيرها.

– أصبحت بجاية في العصر الوسيط قبلةً لطلبة العلم من مختلف أقطار بلاد المغرب الإسلامي والأندلس، وبلاد المشرق الإسلامي، وقد درسوا في كتاتيبها ومساجدها صنوف العلم المختلفة.

– بعض كتاتيب ومساجد بجاية في العصر الوسيط تحولت إلى مدارس وزوايا، خاصة في أواخر العهد الحفصي، وبداية العهد العثماني.

4.. البيبليوغرافيا:

أولا: المراجع باللغة العربية

- **المصادر التَّاريخيَّة:**

– البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (توفي أواخر القرن السَّادس الهجري): أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحِّدين، دار المنصور للطِّباعة والوراقة، الرِّباط، 1971م.

– ابن خلدون، عبد الرَّحمان بن محمَّد (ت 808هـ/1405م): تاريخ ابن خلدون المُسمَّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، ج6، دار الفكر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 2000م.

– ـــــــــــ: التَّعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1979م.

– الرَّصاع، أبو عبد الله محمَّد بن قاسم الأنصاري التلمساني التونسي المالكي (ت 894هـ/1489م): فهرست الرَّصاع، تحقيق وتعليق محمَّد العِنابي، المكتبة العتيقة، د.ت.

– ابن صاحب الصلاة، عبد الملك (ت 594هـ/1198م): المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين (تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحِّدين)، تحقيق عبد الهادي التازي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.

– ابن عذارى المراكشي (كان حيًا سنة 712هـ/1312م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحِّدين، تحقيق محمَّد إبراهيم الكتاني، محمَّد بن تاويت، ج5، ط2، مطبعة النَّجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1985م.

– الغُبريني، أبو العبَّاس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغُبريني البجائي (ت 704هـ/1304م): عُنوانُ الدِّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجاية، حقَّقه وعلَّق عليه عادل نويهض، ط2، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1979م.

● **المصادر الجغرافية:**

– العَبدري، أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد بن علي بن أحمد بن سعود العَبدري (ت 700هـ/1300م): رحلة العَبدري، حققها وقدَّم لها علي إبراهيم كردي، قدَّم لها شاكر الفحَّام، ط2، دار سعد الدِّين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2005م.

● **المعاجم اللغوية:**

– الفيروز ابادي، مجد الدِّين محمَّد بن يعقوب الفيروز ابادي الشيرازي (ت817هـ/1414م): القاموس المحيط، ج1، ط3، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، مصر، 1983م.

– ابن منظور، جمال الدِّين أبي الفضل محمَّد بن مكرم الأنصاري (ت 711هـ/1311م): لِسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، مج5، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

● **المراجع:**

– العربي إسماعيل: دولة بني حمَّاد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنيَّة للنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، د.ت.

– بوعزيز يحي: الموجز في تاريخ الجزائر، الجزائر القديمة والوسيطة، ج1، ط2، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، 2007م.

– سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1998م.

– عفيفي محمود: الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب، دار الفكر العربي، القاهرة، 2002م.

– المراجع المعربة:

– ميراندا أمبروسيو هويثي: التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة، ترجمة عبد الواحد أكمير، ط2، منشورات الزمن، المغرب، 2015م.

● **مقالات ضمن الكتب الجماعية:**

– جوهري بوعلام: القطب سيدي أبو مدين شعيب بين حاضرتي بجاية وتلمسان، مقال منشور ضمن كتاب العلاقات العلميَّة والحضاريَّة بين زواوة وتلمسان، دار الأمل للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، تيزي وزو، الجزائر، 2011م.

– سعيد فاهم: المرحلة البجائيَّة في تصوف القطب أبي مدين التِّلمساني، مقال منشور ضمن كتاب العلاقات العلميَّة والحضاريَّة بين زواوة وتلمسان، دار الأمل للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، تيزي وزو، الجزائر، 2011م.

● **مقالات منشورة في المجلات والملتقيات العلمية:**

– حمود ليلى: ابن خلدون في بجاية، مقال منشور ضمن أشغال الملتقى الدولي حول "بجاية مدينة التَّاريخ والحضارة" المنعقد في 30 و31 أكتوبر 2012م، منشورات كلية العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، جامعة عبد الرَّحمان ميرة، بجاية، 2013م.

– ديب صفية: المؤسسات التعليمية في بجاية ودورها التعليمي في عصري الموحِّدين والحفصيِّين من القرن (7، 10هـ/13، 16م)، مجلة الباحث، مجلة دورية علمية محكمة تعني بالتعليميات والعلوم الإنسانية، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، المجلد 5، العدد 2، ديسمبر 2013م.

– رحيم عائشة: المؤسسات التعليمية في مدينة بجاية خلال القرون 7–10 هجرية، مقال منشور في مجلة متون، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة مولاي الطاهر، سعيدة، المجلد 11، العدد 2، سبتمبر 2019م.

– عزوق عبد الكريم: المساجد الريفية بمنطقة بجاية، مجلة الدراسات الأثرية، آثار، مجلة علمية سنوية محكمة، تعني بنشر الدراسات والأبحاث في الآثار والتراث، يصدرها معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، المجلد 11، العدد 1، أكتوبر 2013م.

– محمدي محمَّد: المساجد والزوايا ببجاية ودورها في حفظ الدين والفكر الصوفي، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد 13، 2013م.

● **المراجع باللغة الأجنبية:**

- FÉRAUD Laurent Charles: Histoire de Bougie, Préface: ((Il faut revoir Bougie)) du Professeur Djamel AÏSSANI, Editions TALANTIKIT, Béjaïa, 2013.
- GAID Mouloud: Histoire de BEJAIA et de sa région depuis l'antiquité jusqu'à 1954, Editions MIMOUNI, Alger, 2008.